(عمر بن عبد العزيز)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة العاشرة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ومحدثِها الإمامِ الحافظِ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الإمامين الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين الذهبي والمزّي، وعن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وحديث اليوم عن:

(الخليفة الراشد: عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–)

افتتح الإمام الذهبي ترجمَة الخليفة الراشد عمر بقوله: (عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ: الإِمَامُ، الحَافِظُ، العَلاَّمَةُ، المُجْتَهِدُ، الزَّاهِدُ، العَابِدُ، السَّيِّدُ، أَمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ حَقّاً، أَبُو حَفْصٍ القُرَشِيُّ، الأُمَوِيُّ، الخَلِيْفَةُ، الزَّاهِدُ، الرَّاشِدُ)

أيها الإخوة:

لا ريب أنَّهُ ما مِنكم مِن أحد إلاَّ واطَّلع على سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز؛ كلّها أو بعضها، وإننا إن كنا نتحدث عن عالم فنحن نهتمّ بالإفادة منه في علمه؛ لنتعَلَّم منه العِلم ونتَعلَّم منه كيف تعلَّم هذا العِلم، فنسلُكَ سبيلَه وننالَ نيلَه، وإن كنَّا نتحدث عن عابد منضبط بالهدي النبويّ فنحن نهتمّ بالإفادة منه في عبادته، ليحَدّثَنا ويعلِّمَنا كيف نزداد إلى الله تعالى بالعبادة قرباً كما فعل هو. وإن كنا نتحدث عن تاجر موفَّق فيَهُمُّنا أن نتعلَّم منه السبيل التي سَلَكَها والدَّربَ التي التزَمَها في تجارته؛ لنعمَلَ عمَلَه، ونُحَصِّل تحصيلَه.

ونحن اليوم نتحدَّث عن خليفة مَلأ الأرض عدلاً، وبسَطَ في خلافته خيراً ، شهد له به القريب والبعيد، والموافق والمخالِف، فتعالَوا نسلِّط الضوءَ على عمرَ الخليفة؛ لنأخذ منه ونتعلَّم السبيل التي سَلَكَها والطريق التي التزَمَها.

إذاً لن تتحدث الخطبة عن عمر بن عبد العزيز العالِم، ولو شئنا الحديث لأفَضْنا، وحسبُكم أنَّ العلماء شهدوا له برتبة "الاجتهاد".

ولن تتحدَّثَ الخطبة عن عمر بن عبد العزيز العابد، ولو شئنا لفَعَلْنا، وحسبُنا أنَّ عمر كان أشبه الناس صلاةً برسول الله صلى الله عليه وسلم، بشهادة بعض الصحابة الذين صلّوا وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رأوا التابعي عمر بن عبد العزيز في صلاته.

ولن أحدِّثكم عن عمر الأب المربّي، والزوج العطوف الحكيم، ولو شئتُ لفعلتُ، وحسبُكُم أن تعلَموا أنَّ عمر الخليفة ما شَغَلَه الجلوس على كرسيّ الخلافة عن الجلوس مع وُلْدِه كلَّ جمعة

يقرأ معهم القرآن ويتدارسُه، فإذا قال: "إِيْهِ" -وهي كلمةُ اسْتِنْطاقٍ واسْتِزادة-، قرأ الأكبر منهم، ثم قال: "إِيْهِ"، قرأ الذي يليه، حتى يقرأ طائفة منهم.

أقول: لن تتحدّث الخطبة عن عمر العالم أو العابد أو المربي، لكنها تتحدث عن عمر الخليفة.

قرأتُ في تراجم عمر -رحمه الله- الكثير، فوجدتُ أموراً ثلاثة كانت أعمِدَة الحكم في خلافة عمر، وطَّدت له حكمَه، وحبَّبت العباد به، وحَفِظَت عليه آخرته، فبارك الله بأيامه في الخلافة مع قلَّتها، وأعلى الله ذكرَه في أرجاء الأرض مع سَعَتِها..

هذه الثلاثة هي محاور خطبة اليوم: إنها: (العدل، والمساواة، وحفظ الحرّيات).

- أما العدل في دولة عمر:

فالعدل أولُه ردُّ المَظالم، وثانيه إيصالُ الحقوق إلى أصحابها، وما عَدَلَ يوماً من سلَّط الظالمين على الآمنين، ولا مَن أكلَ حقوقَ العبادِ ولم يغصَّ بها.

- لما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافةَ وأراد إصلاح ما فسد، بدَأ بنفسه، ثم بأهل بيته، ثم بأبناء عمومته من بني أمية، فأخذ ما بأيديهم من أموال كانوا أخذوها من الناس بغير حق، فردها في بيت المال، فغضب بنو عمومته ولجؤوا إلى عمتهم فاطمة بنت مروان، وكانت فاطمة لا تُحجب عن الخلفاء، ولا يُردّ لها طلب أو حاجة، فلمَّا دخلت على عمر ﷺ عظَّمها وأكرمَها كعادته، وألقى لها وسادةً لتجلس عليها، فقالت: إن قرابتكَ يشكونك، ويذكُرونك أنَّك أخذت منهم خيرَ غيرك -يعني غيرك من الخلفاء أعطاهم هذا الشَّيء فلماذا أنت أخذته-!

قال: ما منعتُهم حقَّاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذتُ منهم حقَّاً أو شيئاً كان لهم.

فقالت: إنّي رأيتهم يتكلمون، وإنّي أخاف أن يهيّجوا عليك يوماً عصيباً.

فقال: كلُّ يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا وقاني الله شره.

ثمَّ دعا بدينار ومجمرة، فألقى الدِّينار في النَّار، ونفخ عليه حتَّى احمرَّ، ثمَّ قال: يا عمَّة، أما ترثين لابن أخيك من هذا؟!

- وروى الآجري: أنَّ ذمّياً من أهل حمص قدم على عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتابَ الله عزَّ وجلَّ -أي: احكم لي بكتاب الله-، قال: وما ذاك؟ قال: العبَّاس بن الوليد بن عبد الملك -ابن عمك- اغتصبني أرضي -والعباس جالس

في مجلس الخليفة-، فقال له عمر: يا عباس، ما تقول؟ قال: أقطَعَنيها الوليد بن عبد الملك -الخليفة قبلك-، وكتب لي بها سجلّاً -ورقة رسميّةً-.

فالتفت عمر إلى الذِّمي وقال: ما تقول يا ذميّ؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عزَّ وجلَّ!! فقال عمر: كتابُ الله أحقُّ أن يُتَّبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، اردُد عليه أرضه يا عبَّاس، فردّها عليه.

أيها الإخوة:

عارَضَ أصحابُ النفوذ والجاه، الذين بنَوا جاهَهَم على مَظالم العباد سياسةَ عمر، وأعلنوا معارَضَتَهم الصارمة لها، فقال لهم عمر: (انظروا, والله لودَدتُ أن لا تبقى في الأرض مَظلمةٌ إلا ورددتُها، على شرط ألا أردَّ مَظلمةً إلا سقط لها عضوٌ من أعضائي أجدُ ألمَهُ ثم يعود كما كان حياً، فإذا لم يبقَ مظلمةٌ إلا رددتُها سالَت نفسي عندها).

- **وأما المساواة:**

فقد عَمِلَ عمر على المساواة بين أفراد الرعية في الأخذ والعطاء، وفي الحكم والقضاء، وفي سائر مرافق الحياة، لا يتفاضلون إلا بالعلم والعمل الصالح، ونَعِمَ الناسُ في حكمه بالتَّساوي؛ مُسلِمُهُم وغيرُ المسلمِ منهم. وَجِيهُهُم وغيرُ الوجيه فيهم.

حتى إنَّه طبَّق مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حَصَلَ أن شَتَمَه رجلٌ بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمَرَ به سوى ما قد يأمرُ به لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة.

ذلك ما حَدَث في المدينة المنورة حين حُكِم رجلٌ فساءَهُ الحُكْمُ، فدخَلَ المسجد معترضاً على أبي بكر بن محمد بن حزم -والي عمر على المدينة- وكان في صلاته، فقطع المحكوم عليهم الصلاة وشَهَرَ السَّيف.

فكتب أبو بكر إلى عمر، فأُتيَ بكتاب عمر، فقُرئ عليهم، فشَتَمَ عمرَ والكتابَ ومَن جاء به، فهمَّ أبو بكر بضربِ عنقه، ثم راجَعَ عمر وأخبرَه أنه شَتَمه، وأنه همَّ بقتله، فكتب إليه عمر: (لو قتلتَه لقتلتُك به، فإنه لا يُقتَلُ أحدٌ بشتمِ أحَد إلا أن يشتمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإذا أتاك كتابي فاحبِس على المسلمين شرَّه، وادعُه إلى التوبة في كل هلال).

- **وأما حِفظُ الحرّيات** -سواء منها الحرية الفكرية والعقدية أو الحرية السياسية أو الحرية الشخصية أو حرية التجارة والكسب-:

فالحديث في هذا طويل، ويسمح لي الوقتُ أن أنقلَ مما كتبَه أحد الباحثين في الحرية السياسية زمَن عمر، قال: (ومما يدلّ على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية، أنَّ أولَ إجراءٍ اتَّخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازلُه في الخلافة، وطلب من الناس أن يختاروا خليفة.

فإذا كانت الحرية السياسية تتجلَّى في ممارستها في موضعين -أولهما: المشاركة في اختيار الحاكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام-، فإنّ عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين، فجَعَلَ لهم الخيار في تولّيه الخلافة قبلَ الوعظِ والنُّصح).

أيها الإخوة:

بهذه الثلاثة -والله أعلم- وطَّد عمر حكمَه، وحبَّب به العباد، وحَفِظَ عليه آخرتَه.

عَنْ لَيْثِ بنِ أَبِي رُقَيَّةَ: أَنَّ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ -رحمه الله- مَرِضَ مَرَضَ وفاته، واجتَمَعَ أهلُه حوله، فقَالَ: أَجْلِسُوْنِي، فَأَجْلَسُوْهُ، فجعل يقول: أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَقَصَّرْتُ، وَنَهَيْتَنِي فَعَصَيْتُ -ثَلاَثاً-، وَلَكِنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ.

قَالَتْ فاطمة زوجته: قُلْتُ لَهُ: أَلاَ أَخْرُجُ عَنْكَ، فَإِنَّك لَمْ تَنَمْ؟ فَخَرَجْتُ، فَجَعَلْتُ أَسْمَعُهُ يَقُوْلُ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ لاَ يُرِيْدُوْنَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ [القَصَصُ:83] مِرَاراً...، ثُمَّ أَطْرَقَ، فَلَبِثْتُ طَوِيْلاً لاَ يُسْمَعُ لَهُ حِسٌّ، فَقُلْتُ لِوَصِيْفٍ: وَيْحَكَ! انْظُرْ.

فَلَمَّا دَخَلَ صَاحَ، فَدَخَلْتُ فَوَجَدْتُهُ مَيّتاً، قَدْ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى القِبْلَةِ.

أَوْصَى عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ عِنْدَ المَوْتِ، فَدَعَا بِشَعْرٍ مِنْ شَعْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَظْفَارٍ مِنْ أَظْفَارِهِ، فَقَالَ: اجْعَلُوْهُ فِي كَفَنِي.

مَاتَ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، لِخَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ رَجَب، سَنَةَ إِحْدَى وَمائَةٍ، بِدَيْرِ سَمْعَانَ مِنْ أَرْضِ المِعَرَّةِ، وَعَاشَ: تِسْعاً وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً وَنِصْفاً، وَكَانَتْ خِلاَفَتُهُ سَنَتَيْنِ وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّاماً.

والحمد لله رب العالمين